جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية/ قسم اللغة العربية وآدابها/ السنة 3ليسانس أدب/ أ. ريلي

المحاضرة : الأسطورة والخرافة

تمهيد: الأسطورة نوع نثري شفاهي قديم قدم تواجد الإنسان على الأرض، فيها سجّل هذا الأخير وقائع حياته وتفكيره ومعتقداته التي هي حصيلة معرفته وعطاءاته عبر العصور التّي تُعد المحاولات الفكرية الأولى في فهم الكون والظواهر المحيطة به.

1-تعريف الأسطورة:

أ. لغة:

الأسطورة لغة من سطر يسطر تسطيرا أي ألف يؤلف تأليفا، جاء في لسان العرب لابن منظور يعرف ابن منظور الأسطورة، بقوله: «و الأساطير: الأباطيل والأساطير: أحاديث لا نظام لها(...) وسطّرها: ألّفها، وسطّر علينا: أتانا بالأساطير(...) إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل».

نستنتج من خلال هذا التعريف أن الأسطورة تعني الحديث الباطل الكذوب غياب المنطق والحقيقة.

ويرى أصحاب المعجم الوسيط، بأنّها :«الأباطيل والأحاديث العجيبة» ويبدو أنّ هذا التعريف مأخوذ من ابن منظور.

بينما ينفي بعض الباحثين أن تكون كلمة الأسطورة مشتقة من مادة سطر ويرون أن العرب لم يعرفوا هذا المصطلح من قبل، وهو ما يذهب إليه وديع بشور في قوله أن:« كلمة أسطورة العربية مقتبسة من كلمة أسطوريا(historia) اليونانية وتعني حكاية أو قصة » لذلك هناك الكثير من الباحثين من يُفضل استخدام اللفظ اليوناني(ميث) حتى يَحفظ للكلمة معناها الأصيل عوض استخدام مصطلح الأسطورة العربي الذي يكتنفه كثير من الالتباس والغموض.

ب. اصطلاحا:

تدل الأسطورة على جماع التفكير والتعبير عن الإنسان في مرحلة حياته الأولى؛ أي المرحلة البدائية، فقد وقف هذا الأخير خائفا إزاء ما كان يشاهده من ظواهر طبيعية مختلفة كحدوث البراكين، وخسوف القمر، وظهور الشمس في الصباح وغيابها ليلا ولتحقيق التوازن النفسي لديه مال إلى إيجاد إجابات مفترضة ومقنعة لما كان يحيره ويرهبه بطريقة تتفق مع طبيعة تفكيره البدائي، وهذا التعليل نجده مجسّد عند الباحثة نبيلة إبراهيم حين قالت إن الأسطورة هي« محاولة لفهم الكون بظواهره المتعددة، أو هي تفسير له، إنّها نتاج وليد الخيال، ولكنّها لا تخلو من منطق معين، ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد، وعلى هذا فإن الأسطورة الكونية – شأنها شأن الفلسفة – تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة، والتأمل ينجم عنه التعجب، كما أن التعجب ينجم عنه السؤال،

فإذا تساءل الإنسان طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله حتى إذا وجد الجواب عن سؤاله، قرت نفسه لأنّ الإجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه ».

ويرى الباحث الأوروبي م. ف ألبيديل أنّ الأسطورة:« حكاية تروى عن الأزمنة التي كانت قبل بدء البدايات كلها، وعن الأحداث التي مضـــى على حدوثها زمن غير معروف وعن الآلهة والأبطال، وظهور السماء والأرض، والبشر والوحوش، والنباتات والطيور، والحياة والموت، والأسطورة أيضا الحكمة الشعبية، وفلسفة الشعب، وشتى أنواع المعارف التي تراكمت عبر القرون ».

فالأسطورة بهذا المعنى تناولت بشرح أصل العالم، والنبات والإنسان والحيوان في عصر ما قبل العلم.

ويعرفها عبد الحميد يونس بأنّها حكاية «تروي تاريخا مقدسا، وتسرد حدثا وقع في عصور ممعنة في القدم »، وهذه الأخيرة (الأحداث) حقيقية لأنها تتعلق بحقائق يؤمن بها أفراد المجتمع الذي يتداولها، فهي« ليست بدعة ولا وهما ولا تهيؤات من صنع الخيال» إنّما هي الواقع الحقيقي الملموس.

ويعرفها يوســـف شـــلهود بأنّها حكاية:« وقعت في زمن موغل في القدم وحتّى خارج الزمن، أمّا أبطالها فليسوا من الآلهة بالضرورة، على الرغم من أنّها تلعب دورا فاعلا في الدراما الأسطورية،(...) إلاّ أنّ أشخاصه الأساسيين مناطون عموما بقوة خارقة يستطيعون بواسطتها القيام بأشياء خيالية، وهؤلاء الأشخاص بالذات هم الذّين زودوا النّاس بأهم ممارساتهم الشعائرية وتقنياتهم ومؤسساتهم، غير أنّ ما يميّز الميث أفضل تمييز ويسمح في الوقت نفسه بفصله عن الأشكال الأخرى للفكر الخرافي، هو تقديم أساس للمعتقدات وتفسير أصل التقنيات والمؤسسات الأكثر أهمية، وتحريك بعض ظواهر الطبيعة، وتزويد مستعمليها بتسويغ لممارساتهم الشعائرية الكبرى ».

ويرى فراس السواح أنّها «حكاية مقدسة، يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، أنّها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء، ووطدت نظام كلّ شيء قائم ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر، فهي معتقد راسخ، الكفر به فقدان الفرد لكل القيم التي تشده إلى جماعته وثقافته، وفقدان المعنى في هذه الحياة »

وبحسب نظرنا، نظن أن التعريف الجامع المانع لمفهوم الأسطورة هو التعريف الذي قدّمه ميرسيا إيلياد(**Mircea Eliade**) الذي انتهى إلى أن الأسطورة عند الإنسان البدائي كانت تروي:« تاريخا مقدسا، وتخبر عن حدث وقع في الزمن الأول، زمن البدايات العجيب، تذكر كيف خرج واقعٌ ما، إلى حيز الوجود، بفضل أعمال باهرة قامت بها كائنات خارقة عظيمة سواء كان ذلك الواقع كليا مثل: الكون، أم جانبا منه، كأن يكون جزيرة أقام فيها الناس، أو نوعا من النبات، أو سلوكا إنسانيا أو مؤسسة اجتماعية، تتحدث الأساطير عن عملية خلق، وتقول كيف ظهرت بعض الأشياء وكيف بدأت بداية وجودها، إذن لا تتكلم الأسطورة إلا عمّا وقع بالفعل، وما ظهر ظهورا تاما على مسرح الحياة، أمّا شخصياتها فهي كائنات خارقة

تعود شـهرتها على وجه الخصـوص إلى المآثر التي أتتها في زمن البدايات وبذلك تكشـف الأسـاطير عن نشاطها الإبداعي، وعن القداسة، أو ببساطة عن فائق الطبيعة في أعمالها ».

وهكذا يمكننا أن نقول إنّ الأسطورة أقدم أنواع الأدب الشفوي، شرحت لنا المراحل التي مر بها تفكير الإنسـان البدائي في فهم طبيعة الكون، وفي تسـمية مظاهره، حيث بينت«كيف شـرع الإنسـان الأول يفكر في نفسه، وفي خالقه، وفي الرّابطة بينه وبين الموجودات، معنوية كانت أو مادية »، وقد غزت كل ميادين الحياة، لذلك عُدّت منبعا لكل أشكال المعارف الأخرى التي كانت متصلة بها في البداية، ثّم انفصلت عنها فيما بعد أمّا أبطالها فقد يكونون آلهـة أو أنصاف الآلهة، أو أبطالاً ممدّنين.

وللأسطورة وظائف اجتماعية نفسية، فهي توحي للإنسان بالاطمئنان والاستقرار والأمان إزاء أخطار الطبيعة وكوارثها، إذ ترى نبيلة إبراهيم في كتابها أشـكال التعبير في الأدب الشـعبي بأنّها« عملية إخراج لدوافع داخلية في شـكل موضـوعي، والغرض من ذلك حماية الإنسـان من دوافع الخوف والقلق الداخلي، فالإنسـان مثلا يخشـى الظلام ويحب ضـوء الشـمس السـاطع، ولذلك فهو يقدس الشـمس ويعُدّها آلهة، في حين أنّه يعُدّ الظلام كائنا شـريرا للإنسـان، ولهذا يتحتم على الشـمس أن تتصـارع مع الكائن الشـرير حتى تقضـي على حماية الإنسـان، ومن هنا كانت رحلة الشـمس الدائبة، فهي تطلع حينما تنتصـر على الكائن الشرير، وهي تغيب حينما يظهر لها مرة لكي يصـارعها »، وهي نماذج مختلفة فقد قسمها الباحث طلال حرب على سـتة أنواع هي:« أسـطورة التكوين والأسـطورة الطقوسـية، والأسـطورة البطولية والأسـطورة التعليلية، والأسطورة الرمزية وأساطير الآلهة».

2. **تعريف الخرافة:**

أ. **لغة:**

ورد في(لسـان العرب) لابن منظور أن الخُرَافة مشـتقة من مادة خرف:« خرف: الخَرَفُ بالتحريك: فسـاد العقل من الكِبَر، وقد خَرِف الرّجُل بالكسـر، يَخْرَف خَرَفًا، فهو خرِفٌ: فسَـد عقله من الكِبر »، ثم يضـيف قائلا والخرافة:« هي الحديث المسـتملح من الكذب، وقالوا حديث خُرافة ذكر ابن الكَلْبي أن خُرافة هو من بني عُذْرة أو من جُهَينة اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه، فكان يحدّث بأحاديث مما رأى، فيعجب منها الناس. فكذّبوه فجرى على ألسن الناس القول».

وذكر الجوهري في معجمه الصحاح أن «خرافة اسم رجل من عُذرة استهوته الجنُّ فكان يُحدّث بما رأى، فكذّبوه، وقالوا: حديث خرافة».

نسـتنتج من خلال هذه التعاريف أن الخرافة تعني ضـعف العقل، نتيجة تقدم السـنّ غياب المنطق والحقيقة، والاختراع والكذب.

ب. **اصطلاحا:**

نقصد بالخرافة «الأفكار والممارسات والعادات التي لا تستند إلى أي تبرير عقلي، ولا تخضع لأي مفهوم علمي سواء من حيث النظرية والتطبيق، فإنّ الذهنية الخرافية هي تلك الذهنية التي تسيطر على الفرد والجماعة بحيث يكون للخرافة فيها مكان بارز سواء في نقل المعلومات أو تمثيلها، وفي تفسير الأحداث أو تعليلها، والذهنية الخرافية بهذا الصدد هي أيضا تلك الذهنية التي تحاول أن تصل إلى أهداف الفرد والمجتمع على أسس لا تستند إلى العلم والعقل».

تنتشر الخرافة بنسبة عالية بين الشعوب التي لم تحقق من الرقي الحضاري ما حققته الدول المتطورة، من نهضة علمية وثقافية واقتصادية راقية.

الخرافة إرث تاريخي توارثته الأجيال من أسلافها الماضيين، على شكل معتقد، أو ممارسة تخلو من العقل والمنطق، وهي أنواع: خرافة دينية وخرافة ثقافية وخرافة اجتماعية.

ومن الخرافات المنتشرة في المجتمع الجزائري نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

. رش الماء على عتبات المنازل أو المحلات لجلب الحظ.

. رش الملح للتخلص من الأرواح الشريرة، وإبعاد النحس.

. تجنب كنس البيت ليلا، لأنّه يسوق النّكد، ويمنع الرزق.

. ترك بعض بقايا الطعام في الطبق ليلا ليأكل منه الجن.

. قرص العروس يوم زفافها يجلب للفتيات غير المتزوجات فارس أحلامهن.

. تعليق حذوة حصان، أو نجمة البحر رمزا للتفاؤل، فهي تدل على الرقم خمسة.

. الاشمئزاز من الرقم 13، ومن اللّون الأسود.

. الدق على الخشب، بعد قولهم أي شيء مخيف سيء.

. رفة الجفن تعني رؤيتك لإنسان لم تجتمع به مدة طويلة.

. قص الأظافر ليلا يجلب سوء الحظ.

. انسكاب القهوة فأل خير.

. إخفاء الشعر بعد قصه حتى لا يستعمل في أعمال السحر.

3. **الفرق بين الأسطورة والخرافة:** ويظهر فيما يلي:

الأسطـورة	الخـرافــة
1.أسـطورة حكاية أو قصـة مبينة على شـــخصـــيات حقيقية وأحداث حقيقية صـارت غبر الزمن تناقلها البشـر عبر العصور وأضـافوا لها إضـافات محفوفة بالمبالغات.	1. حكاية لا أصـل لها ينسـجها الخيال، وهي مليئة بالمبالغات والخوارق.
2. البطل إله وشبه إله.	2. أبطالها الرئيســيون هم من البشــر والجن والأشياء غير الحية والحيوان.
3. لها علاقة مع الدِّين.	3. خيالية لا علاقة لها مع الدّين.
4. أســـطورة مقدســـة تتحدّث عن موضــوعات كبرى هي التكوين والولادة والموت.	4. تتصل الخرافة بالخوارق والمبالغات.
5. تأتي الأســطورة في قالب شــعري قصصي.	5. تأتي الخرافة في قالب سـردي ليسـت بالضرورة شعرا.
6. للأسطورة زمان ومكان محددين.	6. لا تمتلـك الخرافـة زمـان ومكـان محددين.
7. تســتخدم الأســطورة في تعزيز قيم قومية ومعان أخلاقية.	7. لا دور أخلاقي وقيمي للخرافة.
8. تقوم على حدث تاريخي من صـنع الإنسان أو الطبيعة أو السماء.	8. أحداث مؤلفة من نســيج الخيال لا علاقة لها بالواقع.

4. أنواع الأساطير:

اختلف الباحثون في تقسيم أنواع الأسطورة، فقد قسمتها الباحثة نبيلة إبراهيم خمسة أنواع، هي:

أ. **الأسطورة الكونية(الطقوسية):** وهي التي تشرح لنا أصل الكون وولادة العالم، فقد حاول الإنسان القديم الذّي عَجِبَ من كل ما يحيط به من ظواهر الكون أن يجد لها تفسيرا مقنعا حتى يتسنى له السّيطرة على الطبيعة المحيطة به وإخضاعها لمصالحه ورغباته.

ب. **الأسطورة التعليلية:** وهي أساطير تعلل لنا بعض مظاهر الكون المختلفة، فقد تساءل الإنسان القديم مثلا «عن سبب توزيع الكائنات بين الأرض والبحر والفضاء، فعلّل هذا بقصة الطوفان الذّي أغرق

الأرض، ثم أخذ يعلو حتى وصـل إلى قمم الجبال، فلما انحسـرت المياه عن الأرض تمت مع انحسـارها تصـنيف الكائنات: فما لم يدركه الطوفان ظلّ في الفضـاء مثل الطيور، وما ظل الماء يغمره اسـتقر في البحار مثل الأسماك والزواحف، أما الإنسان فقد ظلّ يعيش على وجه الأرض مع صنوف من الحيوان».

ج. **الأسطورة الرّمزية:** وهي أساطير تتضـمن رموزا مختلفة تحتاج للشـرح والتفسـير «وقد ألّفت في مرحلة فكرية أكثر نضجا ورقيّا من التّي ألّفت فيها النماذج السابقة».

د. **الأسطورة الحضارية:** وهي الأساطير التي تكشف لنا «صراع الإنسان مع الحياة لإصراره على الانتقال من المرحلة الطبيعية إلى مرحلة الحضارية».

هـ. **أسطورة البطل المؤله:** وهي أسطورة يكون فيها البطل مزيجاً من البشر والإله مثل جلجامش، وسيحاول هذا الأخير أن ينال الحياة الخالدة، لكنه يفشل في ذلك، فهذه الأسطورة تثبت حتمية موت البشر مهما كانت قوتهم وعظمتهم ومكانتهم، وأنّ الآلهة وحدها من تنال الخلود.

أمّا جاكوبسون(Jakobson) فقد قسمها إلى ثلاث أنواع هي:

أ. **ميثات الأصول:**(وتسمى أيضا الميثات الإيتيولوجية التعليلية)، وتسأل عن أصل كينونة أو جملة كينونات في العالم، آلهة، نباتات، بشر، وعادة ما يُعطى الجواب في صيغة الولادة أو الخلق أو الصنع.

ب. **ميثات التنظيم:** تسأل كيف حدث هذا النوع أو ذاك من المعالم؟ أو كيف ظهرت بعض الأقاليم في نطاق العالم الراهن؟ وكيف أصـبحت الزراعة منظمة؟ وكيف ظهرت إلى حيز الوجود فئات غريبة من الكائنات البشرية وحدد لها وضعها؟

ج. **ميثات القيمة:** وتشكّل مجموعة متفرقة من أساطير التنظيم، وتسأل: بأيّ حق يُمثّل هذا الشيء أو ذاك موقعه من العالم؟ فقارن بين الفلاح والراعي، أو بين الحبوب والصوف.

5. **خصائص الأسطورة:** وتمتاز بالخصائص التالية:

1. من حيث الشكل هي قصة مكتملة، لها بداية ووسط ونهاية وشخصيات وحبكة وعقدة وما إلى ذلك، ترد نثرا، وغالبا ما تصاغ في قالب شعري ليسهل حفظها، وترتيلها في المناسبات الدينية.

2. لا يُعرَف لها مؤلف معين، فهي ظاهرة شـعبية جماعية، لكن هذا لم يمنع من تدخل بعض الأطراف مثلا: ينسب إلى أفلاطون وَضْعُ ثلاثة مؤلفات أسطورية: أسطورة أسرى الكهف، وأسطورة اختيار النفس لمصيرها، وأسطورة الحساب بعد الموت.

3. يتميز النص الأسـطوري بثباته عبر فترة طويلة من الزمن، نظرا لحفاظه على طاقته الإيحائية، قال فراس السواح: ما تنقله الأسطورة من معان لا تشبه الوقائع أو المعلومات الدقيقة، إنّه إيحاء لا إملاء، وإشارة وتضمين لا تعليم وشرح وتلقين.

4. تمثل الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال المؤلّهين (أو الملائكة في الموروث الشعبي الإسلامي)، شخصياتها الرئيسية وإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث فإنّ دوره مكمل لا رئيسي.

5. تجري أحداث الأسطورة في الزمن المقدس، وتُعَدّ مضامينها أكثر صدقا وحقيقة بالنسبة للمؤمنين بها، فالبابلي لا يشك لحظة بأنّ الإله "مردوخ" قد خلق الكون من أشلاء تنين العماء البدئي، والكنعاني لا يشك لحظة بأنّ الإله "بعل" قد وطد نظام العالم بعد أن صارع الإله "يم".

6. ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين، وتعمل على توضيح معتقداته، وتدخل في صلب طقوسه.

7. تعرض الأسطورة حدثا يبقى ماثلا أبدا، فهي لا تقص ما جرى في الماضي وانتهى، بل تعرض أمرا يبقى ماثلا أبدا لا يتحول إلى ماض، بل يتخذ صفة الحضور الدائم مثل قضية خالق الكون، ومسألة تنظيم الكون وتسييره.

8. تتمتع الأسطورة بقدسية، وسلطة عظيمة على نفوس الناس وعقولهم، فقد آمن القدماء بكل الحقائق التي نقلتها لهم الأسطورة، كما نؤمن نحن اليوم بما ينقله لنا العلم (الأسطورة= الحقيقة).

نستنتج ممّا سبق، أن الأسطورة شكل من أشكال الأدب الشعبي الذي عرف رواجا كبيرا في مختلف ثقافات العالم، إذ استطاع هذا اللون أن تُعبر عن تفكير الإنسان وطبيعة حياته في مراحله البدائية والقديمة.